الثعبان صفاته وأوصافه في الشعر الأندلسي

د. نصيب عاشور نصيب محمد (*)

*** نبذة عن الموضوع .**

خلق الله– عز وجل- بعض الحيوانات الحية؛ التي تدل دلالة قاطعة علي قدرة الله، وحكمته في خلقه، والثعبان من بين هذه المخلوقات الحية؛ التي وقف الإنسان متعجبًا لتكوين جسمه، وخلقه علي هذه الكيفية، فهذا المخلوق يحيى حياة طبيعية علي الرغم من كم السموم؛ التي يحمله بداخله، ولكن أنها قدرة الله الخالق المبدع، سبحانه عما يشركون.

" إن الثعبان اسم عام؛ لكل حيوان من مرتبة الثعابين، رتبة الحرشفيات من الزواحف- كما جاء فى المعجم الوسيط- يتميز بجسمه الطويل غير ذى الأرجل، المغطى بفلوس قرنية، وهو أنواع، ويوجد منها ما يقرب من ٣٠٠٠ نوع فى مختلف أنحاء العالم، وهى أبغض الحيوانات إلى قلوب الناس." (١)

كما أن الحيات جمع حية؛ رتبة من الزواحف منها أنواع كثيرة : كالثعبان، والأفعى، والصّل، والأرقم، والأبتر، والشجاع، والأزبّ، والأرقش، والأفعوان، وذو الطّفيتين، والأرقط، والجنّان، والأسودة، والحنش، وقد أورد الشاعر ابن عبد ربه الأندلسي (٢٤٦هـ - ٣٢٨هـ) عدة أسماء للثعبان - في بيت شعري واحد- فأنشد الشاعر ابن عبد ربه الأندلسي قائلاً : الرجز

وبعدها كانت غَزاةُ طُرَّشْ سَما إليها جيشهُ لم يُنْهَش
وأَحدقتْ بحِصْنها الأَفاعي وكُلُّ صِلٍّ أَسْودٍ شُجاعِ (٢)

(*) دكتوراه في الأدب والنقد – الأدب الأندلسي.

١ - موسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي، عبد اللطيف عاشور، ، القاهرة ، مكتبة القرآن، طبعة ٢٠٠٠م صـ ٢٠٣

٢ - ديوان شعر ابن عبد ربه: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى (ت ٣٢٨ه) جمعه وحققه: محمد رضوان الداية، دار الفكر، سورية، الطبعة الثانية ١٩٨٧ م صـ ١٩٠

وقد وصف ابن عبد ربه الأفاعي، والثعابين؛ حينما حلت بطرش؛ التي فتحها جيش ممدوحه، دون عناء، أو جهد يذكر، ولكن طرش هذه حويت بداخلها أصناف من الحيات، والثعابين القاتلة، والمميتة، وربما أراد الشاعر-هنا- أن يتعجب من ذلك، فكيف استطاع ممدوحه؛ أن يفتح هذه الولاية، ويسيطر علي قراها دون عناء، أو جهد يذكر؛علي الرغم من الأفاعي، والحيات؛ التي تعيش بطرش، وقراها .

وقد أكدت دراسة حديثة بجامعة كوينزلاند أنه بالأضافة إلي الاهتزازات الأرضية، يمكن للأفاعي سماع الأصوات المحمولة جوًا والتفاعل معها، ويقول الدكتور زدينيك " لأن الثعابين ليس لها آذان خارجية، يعتقد الناس عادة أنها صماء، ويمكنها فقط أن تشعر بالاهتزازات من خلال الأرض، وفي أجسادها، لكن بحثنا، وهو الأول من نوعه باستخدام ثعابين تتحرك بحرية دون تخدير وجد أنها تتفاعل مع الموجات الصوتية؛ التي تنتقل عبر الهواء، وربما الأصوات البشرية."(١)

وقد وصف الشعراء الأندلسيون الخوف من الثعابين، والهلع منها، وكأنه الخوف من الأسود الضارية، فأنشد الشاعر الأندلسي يوسف بن هارون الرمادي (٣٠٥ هـ – ٤٠٣ه) في هذه المعاني قائلاً : الكامل

لَمّـــا تَهَـــدَّدَني نَصـــيرٌ بِـــالنَّوى أُفزِعـــتُ مِـــن نَـــأيٍ إِلـــى هِجـــران
فَكَـــأَنَّني فـــي ذا وَذَلـــك حـــائِرٌ قَـد فَـرَّ مِـن أَسَـدٍ إِلـى ثُعبـانِ (٢)

فالشاعر– هنا – في حيرة من تهديد نصيره له، وقد وصف الشاعر حيرته بالإبعاد،أو العزلة، فإن لم تكن كذلك، فهي هجرة من خوفه من الأسود إلي الهلاك بسموم الثعابين، وكلاهما أمر صعب .

" وقد عد العلماء من أنواع الثعابين، والأفاعي، وأخشى ما يخشاه الإنسان من الثعبان سمه، وكثير من الثعابين غير سام، ومن الثعابين: ثعابين تعرف بالعاصرة، وهى أكبرها تلتف على ضحيتها التفافًا، وتعصرها عصرًا، فتحبس عنها

١ - نقلا عن مجلة اليوم السابع: دراسة تثبت " أن الثعابين يمكن أن تسمع أكثر مما نعتقد " كلية العلوم البيولوجية بجامعة كوينزلاند، د. زدينك نشرت في ٢٠٢٣/٢/١٧م .
٢ - ديوان شعر ابن الرمادي ، يوسف بن هارون الرمادي ، جمعه وقدم لع : ماهر زهير جرار، بيروت، المؤسسة العربية الدراسات والنشر، الطبعة الأولي سنة ١٩٨٠م صـ ١٢٩

الأنفاس، فتختنق، وتموت كالبيثون، أو الأصلة، والثعبان الكبير يصيد جديًا أو غزالاً." (١)

* أسباب اختيار الموضوع :-

ومن أهم الدوافع؛ التي حدت بالباحث إلى دراسة وصف الثعبان في الشعر الأندلسي؛ أنه من الموضوعات؛ التي تعكس جانبًا من جوانب الطبيعة الحية في الأندلس، وتعكس- أيضًا - علاقة الإنسان بغيره من الكائنات الحية مثل: الثعبان.

- يعكس وصف الثعبان جانبًا من جوانب الحياة الاجتماعية في الأندلس بكونه رمزًا من رموز العداوة، والكراهية في البيئة الإندلسية، ومدى ما يحمله من سموم .

- ربط الحالة النفسية؛ للثعبان بالحالة النفسية للشاعر؛ التي كثيرًا ما دلت علي القلق، والخوف؛ فقد اتخذ الشاعر الثعبان رمزًا للأعداء ، والمخالفين له من البشر؛ الذين يتربصون به دائمًا .

* منهج الدراسة :-

من أجل تحقيق أهداف البحث، سيقوم الباحث بالارتكان إلى المنهج الوصفي التاريخي من ناحية، واستعان ببعض المناهج الأخرى، وهو بصدد دراسة وصف الثعبان في الشعر الأندلسي؛ لأنه على يقين تام؛ بأنه ليس هناك منهج بعينه، يستطيع أن يتصدى للنصوص الأدبية برمتها، ويفكَّ كل مغاليقها.

- الثعبان صفاته وأوصافه في الشعر الأندلسي :

أكثر شعراء الأندلس من وصف الثعابين والحيات، وتخذوا منها رموزًا للكراهية، والعداوة للبشر؛ الذين يتربصون بهم، ويحقدون عليهم، وقد وصف الشاعر الأندلسي ابن هذيل القرطبي (٣٠٥هـ - ٣٨٩هـ) هجمات الحيات، وكأنها خصم حقود، يهجم بكل ضراوة، وقد وصف الشاعر صوت الحيات وهي نائمةبصوت الغطيط، ووصف صوتها حينما تصحو وكأنه زائير الأسود، وقد انتشرت الحيات علي الحصى، وكأنها ولدت منذ قليل، فأنشد الشاعر ابن هذيل قائلاً : الكامل

مـــلأ الـــتِّلاع فأقبلـــتْ وكأنّهـــا هجمـــــاتُ حيّـــــاتٍ ذوات حقُـــــودِ

١ - موسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي، عبد اللطيف عاشور صـ ٢٠٤

تنحـو إلـى حـال الغطـيطِ ورُبّمـا زَأرتْ فتسـمعها زئيـرَ أسـودِ
وَتُثيـرُ طافيـةَ الحصـى فكأنّهـا دلـتْ علـى السـاعاتِ فَهْـمَ بليـد (١)

وكثيرًا ما نسمع أن الثعابين، تلدغ بألسنتها، والحقيقة أن لسان الثعبان ناعم، ولا خطر منه، وإنما الثعابين جميعها؛ بلا استثناء تعقر، وقد يجرح سن الثعابين، ويسبب الوفاة مثل خدش القط.

وقد وصف الشاعر الأندلسي ابن هذيل القرطبي الدروع الواسعة، صافية الملمع، وكأنها أفاعي رقشاء، كادت أن تلسعهم ؛ حينما لمسواها بالأيدي، وفي هذه المعاني، أنشد الشاعر الأندلسي ابن هذيل قائلاً : المنسرح

وسـابغاتٍ كأنّمـا نُسِـجت بـالآلِ ممَـا صَـفا مُلمّعهـا
إن اكتسـى فـارسٌ بهـا إنهرقَـت كأنّـهُ فـي التُّـرابِ يزرعُهـا
كأنّهـا والأكـفُّ تلمسـها رُقـشُ الأفـاعي تكـادُ تَلسـعُها (٢)

والأفعى: حية من شرار الحيات، رقشاء دقيقة العنق، عريضة الرأس، قاتلة السّم، والجمع أفاع، وقد أورد الشعراء الأندلسيون الحية الرقشاء في عديد من تشبيهاتهم، ويرجع السبب في ذلك؛ لما توصف به هذه الأفاعي من شدة العداء للإنسان، وقد شبه الشاعر الأندلسي ابن شهيد الأندلسي (٣٢٣هـ - ٣٩٣هـ) الرجال؛ حينما تأخر نفعهم بالنساء؛ التي يشبهن الحيات الرقشاء؛ ذات الألسنة الطويلة، وفي هذه المعاني ، يقول الشاعر ابن شهيد الأندلسي قائلاً : الكامل

إنَّ الرِّجَـالَ إذا تَـأَخَّرَ نَفْعُهُـمْ فـي كُـلِّ مَعْنًـى شُـبِّهُوا بنِسـاءِ
أَناصِـلُهُمْ عنْـدَ الخِصَـامِ فخَلِّهِـمْ لِلِسـانِ هـذى الحَيَّـةِ الرَّقْشـاءِ (٣)

١ - التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، ابن الكتاني الطيب ، أبو عبد الله محمد بن الحسن (المتوفى: نحو ٤٢٠ هـ) المحقق: إحسان عباس ، الناشر: دار الشروق، عنوان الناشر: بيروت – القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٨١ م ق١ صـ ٦٣
٢ - المصدر السابق ق٢صـ ١٩٩
٣- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ابن بسام ، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (المتوفى: ٥٤٢هـ) المحقق: إحسان عباس، الناشر: الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، الطبعة الأولي ١٩٧٨م ق٣ جـ ١ صـ ٥٢٢

وتستخدم الثعابين السامة مثل: الكوبرى، أو الأفعى أسنانًا خاصة فى عقر الضحية : وهى الأنياب فى الفك العلوى، وهى مفرغة تعمل كحقنة الطبيب؛ حيث تفرز غدة خاصة فى الأفعى السّم، وترسله إلى الناب المجوف؛ الذى يحقنه بدوره فى جسم الضحية.

ومن الشعراء الأندلسيين؛ الذين أوردوا ذكر الأفاعي القاتلة، وسمها المميت في أشعارهم الشاعر الأندلسي ابن هانئ الأندلسي (٣٢٦ هـ - ٣٦٢هـ) حينما شبه؛ الذين يتقون الذم؛ ويتجنبونه؛ وكأنهم يتقون سموم الأفاعي القاتلة؛ حينما توضع علي حد السيف الباتر؛ وفي هذه المعاني، أنشد الشاعر ابن هانئ قائلاً : الطويل

وهم يتَّقُونَ الذَّمَّ حتى كأنّهُ ذُعافُ الأفاعي في شِفارِ المناصل (١)

وقد شبه الشاعر ابن هانئ الأندلسي دم الأفاعي القاتل بالمجون؛ التي كانت مزاج للبابليين؛ وهنا - يقصد الشاعر سموم الأفاعي القاتلة، وفي هذه المعاني، أنشد الشاعر ابن هانئ الأندلسي قائلاً : الكامل

فمزاجُ كأسِ البابِلِيّةِ أوْلَقٌ ومِزاجُ تلك دمُ الأفاعي القاتل (٢)

وتوصف الزواحف، ومن بينها الأفاعي" بأنها حيوانات من ذوات الدم البارد، مثلها فى ذلك مثل الأسماك، والبرمائيات، ترتبط درجة حرارة أجسامها بدرجة حرارة الوسط، الذى تعيش فيه، ولذلك تتوقف نشاطات هذه الحيوانات توقفًا كاملاً؛ عندما يصبح الجو شديد البرودة ، فهى تلجأ إلى البيات الشتوى؛ حيث تختبئ تحت الصخور أو فى داخل التجويفات، والأنفاق الأرضية، وتظل كامنة فى مخابئها؛ حتى يأتى الربيع، وتستهلك فى تلك الفترة الدهون، والمواد الغذائية المختزنة؛ التي حصلت عليها خلال فترة نشاطها." (٣)

١ - ديوان شعر ابن هانئ ، أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدي الأندلسي ، بيروت ، دار بيروت للطباعة والنشر ، طبعة ١٩٨٠م صـ ٣٠٤

٢ - الديوان السابق صـ ٢٩٢

٣ - موسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي، عبد اللطيف عاشور صـ ٢٠٦

وقد منح الله - عز وجل- الحية أنياب، أو نيوب معوجة قاتلة، فمن تصيبه هذه النيوب، تفتك به، وقد وصف الشاعر ابن هانئ الأندلسي أحد الأشخاص، وهو ابن الخرز، حينما أسر من قبل الخليفة المعتز، بأنه لن يفلت من عقاب الخليفة؛ حتى ولو بات بين نيوب الحية المعوجة، وفي هذه المعاني، أنشد الشاعر ابن هانئ قائلاً : البسيط

ولـو غـدا بخُلـوبِ اللّيـثِ مُـدَّرِعاً أو بـاتَ بـينَ نُيـوبِ الحيّـةِ العُصُـل (١)

ويمكن التعرف على الثعابين السامة، بملاحظة انتفاخ جانبي الرأس خلف العينين، وذلك لاحتوائهما على غدتين كبيرتين للسم، والأرقم: ذكر الحيات، وأخبثها، وأشدها خطر علي الإنسان .

ومن مسميات الثعابين – أيضًا – التنين، وقد أورد هذا الاسم الشاعر الأندلسي ابن هانئ الأندلسي؛ حينما وصف سخط الممدوح، بأنه العداوة؛ التي أصبحت أشد خطرًا من سم التنين؛ الذي يحمله بين لهاته، وفي فمه ، وفي هذه المعاني، أنشد الشاعر ابن هانئ يقول : الكامل

أو كـان سُـخطُك عـدوةً فـي السـمّ لـم يَحْمِلْـــهُ دونَ لَهاتِـــهِ التِّنّـــين (٢)

وتأتى الثعابين بشتى أجناسها، وأنواعها فى الرتبة الثالثة من الطائفة المعروفة بالزواحف بعد السلاحف، والسحالى، وتعقبها فى المرتبة الرابعة التماسيح، ومن العلماء ؛ الذين أهتموا بالزواحف، وخاصة الثعابين، بينما هناك من جمع بين السحالى، والثعابين فى رتبة واحدة ، وقد عكف كثير من العلماء علي دراسة السموم القاتلة للثعابين ، بمختلف أنواعها، وكذلك عكفوا علي دراسة فوائد الثعابين في النظام البيئي .

والأبتر: من الحيات القصيرة الذنب، ولكنها تحمل كثير من السموم القاتلة " يوجد فى مصر ما يقرب من ثلاثين نوعًا من الثعابين من أشهرها، وأكثرها انتشارًا: الدساس المصرى، والأرقم، والثعبان أكل البيض، والكوبرى، والحية القرناء، والحية الزعراء، والحية القرناء من الثعابين الولودة ، وهى تلد فى المرة

١ - ديوان شعر ابن هانئ الأندلسي، ابن هانئ الأندلسي صـ٢٧٥
٢ - ديوان شعر ابن هانئ الأندلسي صـ ٣٥٦

الواحدة من خمسة إلى خمس عشرة حية صغيرة ، وقد يصل العدد أحيانًا إلى عشرين، أو أكثر." (١)

وهناك من زعم أن لسعة الأفعي، تعاود سمها عامًا بعام ؛ فكلما حل موعد لدغها من كل عام يعود ألمها، فأن الجسم يشعر بهذا السم دون، أن تلدغه هذه الأفعي، مرة أخرى، وفي هذه المعاني، أنشد الشاعر الأندلسي ابن دراج القسطلي (٣٤٧ هـ - ٤٢١هـ) قائلاً : الوافر

كما حُدِّثْتَ عن لَسْعِ الأَفاعِي يُعاوِدُ سُمُّها عاماً بِعامِ (٢)

ومن العجائب التي تروى في خبر الحيات، وخبر بعض البلدان، أن بعض المؤرخين، ومنهم بلوتارك المؤرخ الروماني أنه روي " أن قبيلة السلر: وهي من القبائل البائدة، كانت في رجالها مناعة طبيعية موروثة ضد سم الحيات، وكانوا يحافظون على طهارة أصلابهم، ونقاء دمائهم المحافظة كلها؛ فلا يسمحون لنسائهم أن يتزوجن، أو يتصلن أي اتصال برجال من غيرهم، وكانوا يستوثقون من هذه الطهارة ، بأن يطلقوا الحيات السامة على أولادهم؛ حين ولادتهم؛ فأن قتلت واحدًا منهم تبينوا خيانة أمه." (٣)

وقد تعجب الشاعر الأندلسي ابن دراج القسطلي من الزمان؛ الذي غذى الأفاعي السامة، والحيات القاتلة؛ من أجل لدغ الشاعر، ولسعه وبث سمومهم في صدره؛ حتى أصبح الشاعر في عداد الموت؛ إن لم تعدي عليه سبع ليالي، وفي هذه المعاني، أنشد الشاعر ابن دراج القسطلي قائلاً : المتقارب

زمانٌ كَأَنْ قَدْ تَغَذَّى لِسَعْيٍ لُعابَ أَفاعٍ وحيَّاتِ وادِ

فأَودَعَ من نَفْثِهِ حُرَّ صدري سِماماً لَياليَّ منها عِدَادِي (٤)

١ - موسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي، عبد اللطيف عاشور صـ ٢٠٥

٢ - ابن دراج القسطلي ، ديوان شعر ابن دراج القسطلي صـ ٢٣١

٣ - أحمد حسن الزيات باشا ، مجلة الرسالة ، عدد الأعداد: ١٠٢٥ عددا جـ ٣٣ صـ ٦٥

٤ - ديوان شعر ابن دارج الأندلسي ، ابن دارج الأندلسي، تحقيق : محمود علي مكي، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق الطبعة الأولي ١٩٦١م صـ٢٩١

ومن التوازن البيئي بين الكائنات الحية علي سطح الأرض" إن حكمة الله أن سلط بعض المخلوقات الحية على بعض" حتى لا تزدحم بها الأرض، أو يطغى جنس منها على غيره من الأجناس، ولهذا نرى رحى الحرب دائرة بين هذه المخلوقات منذ نشأت الدنيا، فبينما نرى الطيور الجوارح ... وغيرها مسلطة على الحيات، فلا تكاد تراها حتى تنقض عليها، وتمزقها تمزيقًا، فلا تحميها منها لدغاتها، ولا سمومها، تجد هذه الحيات بدورها مسلطة على الضفادع ، والسحالي ، وصغار الطير، والثديات، ولا ينجو من شرها الإنسان نفسه، فكثيرًا ما تعدو عليه، وعلى أطفاله، وعلى ما يربى من طيور، وثديات نافعة ؛ كما تفعل الأرقام في مصر، والبواء في الهند، والبرازيل."(١)

وتسكن الحيات، والثعابين بين الشقوق، والفتحات، وفي الصدوع الأرضية، وكذلك تسكن الثعابين، والحيات الكهوف المهجورة، وقد أشار لمسكن الحيات الشاعر ابن دراج الأندلسي، حينما أنشد ابن دراج يقول : الطويل

عَوَائِدُ طَيْرٍ فِي وُكُورٍ بُرُوجِهَا وحَيَّاتُ غَوْرٍ فِي بطون كُهُوفِهَا (٢)

وهناك الحيات المائية الشرهة، التي تفتك بالأسماك، ويكثر فتك أنواع من الحيات بالإنسان، وتؤدي بحياته، لذا يسعي الإنسان ؛ لتجنب المواجهة مع هذه الحيات، والثعابين، وعن الحيات المائية، والثعابين المائية، يقول الشاعر الأندلسي مروان الطليق (٣٥٢ه – ٤٠٠ه) واصفًا كثرة هذه الثعابين، وهي تخرج من السواقي، وكأنها الماء، فأنشد مروان الطليق يقول: الخفيف

وَكَأَنَّ المياهَ فيها ثَعابينُ لَجَينٍ تَبَعَّثَت في السواقي
وَكَأَنَّ الحصباءَ في رونِق الماء سَنا الدُرِّ في بَياض التَراقي (٣)

١ - مجلة الرسالة ، أحمد حسن الزيات باشا جـ ٣٣ صـ ٦٥
٢ - ديوان شعر ابن دارج الأندلسي ، ابن دارج الأندلسي صـ ٢١٠
٣ - الحلة السيراء ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (المتوفى: ٦٥٨هـ) المحقق: الدكتور حسين مؤنس ، الناشر: دار المعارف – القاهرة ، الطبعة: الثانية، ١٩٨٥م صـ ٢٢٥

ومع أن الثعابين، وحيات الماء، تشكل خطرًا كبيرًا علي الإنسان؛ إلا أنها إلى جانب هذه الأضرار، لا تخلو من فائدة، فهي تقضي على الفيران؛ التي هي من أكبر العوامل في نقل عدوى الطاعون، فتقلل بذلك انتشاره، وتحمي البيوت، والمزارع من هذه الفيران، كذلك بخاصة الغيطية منها، وبعض الحيات تأكل الديدان الضارة، وهناك أنواع ضخمة، تؤكل لحومها، ويصنع من جلودها أجود أنواع الأحذية، وحقائب السيدات.

وقد وصف الشاعر الأندلسي ابن حزم (٣٨٤هـ - ٤٥٦هـ) الحية الرقشاء، بأنها موشية اللون- أي بها بياض يتخلل لونها الأسود - وكذلك تعجب الشاعر من لون اللحية العجيب، ومن ثم تعجب الشاعر من السم المركب؛ الذي يكمن تحت وشي الحية، وفي هذه المعاني، أنشد الشاعر ابن حزم يقول: الطويل

وللحيـــة الرقشـــاء وشـــي ولونهـــا عجيب وتحت الوشي سم مركب (١)

ولعل من ينظر في حدائق الحيوانات، بمختلف الأماكن في العالم، لا يستوقف نظره شيء أكثر مما تستوقفه تلك الحيات السجينة في بيوتها الزجاجية " فهي على الرغم من جمال منظرها، وما هو معروف من نعومة ملمسها ، تبعث في النفس شيئًا من الاشمئزاز والكراهية ، وعلى الرغم من سجنها، والأمان من شرها، يهتز القلب فزعًا منها ، ولعل السر في ذلك تلك الاعتقادات السائدة؛ التي تناقلها الناس جيلاً بعد جيل عن فتكها، وخيانتها حتى جاء ذكرها في كثير من تشبيهات الكتاب، وخيال الشعراء ، كما ورد ذكرها في الكتب السماوية ."(٢)

وللثعابين أنياب كبيرة، تصيب الإنسان بها في كثير من الأحايين، وتؤدي بحياته؛ بسبب هذه النيوب، وقد وصف الشاعر ابن شرف القيرواني (٣٩٠هـ - ٤٦٠هـ) هذه النيوب بالعصل، والذابل، والنبل، والنصل، وفي هذه المعاني، أنشد الشاعر ابن شرف القيرواني يقول: الخفيف

مِـــن ثَعـــابينَ حـــامِلينَ نُيوبـــاً عُصُـــلا ذابِـــلاً وَنَـــبلاً وَنَصـــلا (٣)

١ - ابن حزم الأندلسي، رسائل ابن حزم الأندلسي جـ ١ صـ ١٩٢
٢ - مجلة الرسالة، أحمد حسن الزيات باشا جـ ٣٣ صـ ٦٣
٣ - الذخيرة في محاسن أهل اجزيرة، ابن بسام الشنتريني ق ٤ جـ ١ صـ ٢٢٩

إن للزواحف أرجلاً قصارًا، وكلما قصرت اقترب بطنها من الأرض، فكانت الحركة زحفًا على البطن، وأصدق الزواحف زحفًا الثعابين؛ حيث افتقدت الأرجل!.

وقد وشبه الشاعر ابن شرف القيرواني الأعداء بالزواحف، أو الحيات؛ حينما قلمت أظافرهم - وهنا- يقصد الشاعر؛ أنهم سلبوا جميع أسلحتهم، فأنهم أصبحوا كالحيات؛ التي لا تقوى علي السير؛ إنما تزحف علي بطونها ؛ وفي هذه المعاني ، أنشد الشاعر ابن شرف القيرواني يقول: الرمل

قَلَّمُ قَلَّمَ أَظفارَ العِدا فَهوَ كَالإِصبَعِ مَقصوصُ الظُفُر
أَشبَهَ الحَيَّةَ حَتّى إِنَّهُ كُلَّما عَمَّرَ في الأَيدي قَصُر(١)

والثعبان : هو الاسم العام لمجموعة من الزواحف؛ التى يعرفها كل إنسان فى حين أن الحية ، تقتصر على أنواع خاصة من هذه الثعابين، ولها مواصفات خاصة .

والحية " تختلف بعض الاختلاف عن بقية الثعابين الأخرى، ولكنها جميعًا تمتاز بأجسام طويلة، تزحف بها على سطح الأرض فى حركات تموجية؛ لا تشاهد فى غيرها من الحيوانات الأرضية، وعلى خلاف الاعتقاد السائد بين عامة الناس؛ بأن جميع الثعابين من الحيوانات السامة، فإن الواقع غير ذلك على الإطلاق ."(٢)

ومن الحيات، والثعابين ما يطلق عليه النضناض: وهي حية لا تستقر في مكان، أو إذا نهشت قتلت من ساعتها، أو التي أخرجت لسانها تحركه، وقد وصف الشاعر ابن حداد الأندلسي (؟ ه – ٤٨٠ه) الثعبان الأرقم بالنضناض، وفي هذه المعاني، أنشد الشاعر ابن حداد الأندلسي يقول : البسيط

١ - تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري (المتوفى: ٦٥٤هـ) تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف ، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي صـ ٥١٠

٢ - موسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي، عبد اللطيف عاشور صـ ٢٠٥

يجـيءُ كالهَصِـرِ ١الفَضْـفاضِ٢ مقتـتلاً أَصَـمُ كـالأرقم النَضْـناض٣ إذْ يَجَـأُ٤

من الثعابين- على سبيل المثال- الثعابين " أكلة البيض: وهى ثعابين غير سامة على الإطلاق، ولا تهاجم أى إنسان، بل يقرر المشتغلون بدراسة الثعابين، أن الثعابين السامة؛ التى تحمل فى أنيابها السم الزّعاف، أقل عددًا من تلك؛ التى لا تحمل أى نوع من السموم على الإطلاق؛ أو تلك التى لا تكون مزودة؛ إلا بسموم ضعيفة، لا تضر الإنسان، ولكنها تكفى؛ لقتل صغار الحيوان: كالضفادع، والفيران... وغيرها."(٥)

ومن الأمور العجيبة؛ التي تروى في ذكر الثعابين، والبلاد التي لا يدخلها ما ذكره " غير واحد من المحدثين، والمؤرخين أن مدينة سرقسطة، لا يدخلها الثعبان من قبل نفسه؛ وإذا أدخله أحد لم يتحرك؛ ونظير هذا المعنى في بعض الحيوانات بالنسبة إلى بعض البلاد كثير؛ وذلك برصد، أو طلسم ."(٦)

والجلود من أهم المنافع؛ التي يحصل عليها الإنسان من الأفاعي، والثعابين، والحيات؛ فهي تستخدم في صناعة الأغطية، والأحذية، وقد أشار الشاعر الأندلسي ابن عمار (٤٢٢ه- ٤٧٩ه) لذلك؛ حينما وصف صعاليك؛ هاموا في الصحراء، ولبسوا جلود الأفاعي، والثعابين، وفي هذه المعاني ؛ أنشد ابن عمار يقول: الطويل

صـعاليك هـاموا بـالفلا فتـدرعوا جلود الافاعي تحت بيض النعائم (٧)

١ - الهيصر: الأسد (وفى الأصل الهصر وبه يختل الوزن)
٢ - الفضفاض: الواسع، والمراد هنا الضخم
٣ - الأرقم، النضناض: الثعبان الذى لا يستقر فى مكان واحد، أو إذا نهش مثل من ساعته، يجأ: يضرب.
٤ - ديوان شعر ابن الحداد الأندلسي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف (ت٤٨٠ه) حققه: يوسف على طويل، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى١٩٩٠م صـ ١٣٤
٥ - موسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي،عبد اللطيف عاشور صـ ٢٠٥
٦ - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، المقري التلمساني، شهاب الدين أحمد بن محمد (المتوفى: ١٠٤١هـ) المحقق: إحسان عباس ، الناشر: دار صادر- بيروت - لبنان ، الطبعة ١٩٩٧مجـ ١ صـ ١٩٢
٧ - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني ق ٢جـ ١ صـ ٣٧٣

وقد اهتم كثير من الباحثين، والدارسين بدراسة سموم الأفاعي، والثعابين، وتحديد فوائد هذه السموم، وأضرارها؛ ولماذا يفزع الإنسان من هذه الأفاعي؛ ويسيطر عليه الخوف، وينتابه الهلع .

" وقد يكون ذلك راجعًا إلى شكلها الطبيعي، ووقوفها شاخصة؛ لا تغمض، ولا تطرف، وحركات ألسنتها الدائمة السريعة، واعتقاد الناس خطأ؛ أنها أعضاء اللدغ منها، فترى أثر الخوف منها شديدًا في نفوس الكبار؛الذين عرفوا شيئًا عنها، ولكن الأطفال الصغار،لا يدركون قليلاً، ولا كثيرًا من أمرها، وكذلك صغار القردة، قد ترى الأفاعي زاحفة، فلا تخشى أن تقترب منها، وتلمسها، وتعلب بها، وقد أيدت هذه المشاهدة الباحثة ميتشل في تجارب عدة قامت بها." (١)

وقد وصف الشاعر المعتمد بن عباد (٤٣١ه-٤٨٨ه) نصحه للمندم، وإعراضه عن الأفعال القبيحة، والأخلاق السيئة، ولكنه يحذر من سهولة طبعه، فتحت طبعها السهل أفعال قاسية؛ تشبه سم الأفعي؛ الذي يكمن تحت ملمسها الرقيق ولينها؛ وفي هذه المعاني، أنشد الشاعر المعتمد بن عباد يقول:الكامل

يا مَن تَعَرَّض لي يُريدُ مَساءَتي لا تَعرضَنَّ فَقَد نُصِحتَ لمندمِ
مَن غَرّهُ مِنّي خَلائقُ سَهلَةٌ فالسمّ تَحتَ ليان مَسّ الأَرقَمِ (٢)

والزواحف بصفة عامة- بطيئة الحركة، لا تنتقل كثيرًا من بيئتها الطبيعية، وسميت كذلك؛ لأنها تزحف ببطنها على سطح الأرض، ويوجد منها ما يقرب من ستة ألاف نوع منتشرة، فى مختلف أنحاء العالم.

ولا تنتقل الثعابين كثيرًا من بيئتها، فالثعابين التي تعيش في الصحراء، تواصل بقية حياتها في الصحراء، والثعابين، والحيات التي تعيش في البيئة الزراعة؛ تكمل بقية حياتها في البيئة الزراعية، ولا تنتقل الثعابين إلا في حالات نادرة، ومن هذه الحالات؛ حينما تجرفها مياه السيول، والمجاري المائية، وقد وصف الشاعر الأندلسي ابن اللبانة الداني (؟ ه - ٥٠٧ه) أحد الأشخاص؛ حينما يفزع من صارخ يهيجه، وكأنه حية انسابت في الماء، وفي هذه المعاني، أنشد الشاعر ابن اللبانة الداني يقول: السريع

١ -مجلة الرسالة، أحمد حسن الزيات باشا ،عدد الأعداد: ١٠٢٥ عددا جـ ٣٣ صـ ٦٢
٢ - الحلة السيراء، ابن الأبار صـ ٨٥

تبصـــــره ان هاجـــــه صـــــارخ كالحيـــــة انســـــاب وكالمـــــاء ســـــاح
يجلـــي الـــوغى منـــه ومـــن طرفـــه عـــن قمـــرٍ لاح وعـــن بـــرقٍ لاح (١)

ويعتقد الناس أن في الحواة سحرًا، أو قوة خارقة، يسلطونها على الحيات، ففي الهند- مثلاً : يمر الحاوي بالناشر الهندي، ومعه عصا، ومزمار، فيظل يداعبه بالعصا، والحية تعضها، وبعد أن يكون قد أجهده التعب، يرمز له فيهدأ، ويسكن فيظن الناس أن الثعبان، لا يلدغ الحاوي خوفًا منه .

والواقع أنه يكون قد أفرغ سمه حين عض العصا، كما يحسبون، أن للقيثارة أثرًا في تهدئته، والحقيقة أنه التعب الذي أضناه، وقد وصف الشاعر الأندلسي ابن حمديس(٤٤٧هـ - ٥٢٧هـ) الأسود، وهي تلبس جلد الأفاعي، وكأنه قميص ترتديه، وبه بياض يوشيه، كلون بيضات النعام، وفي هذه المعاني، أنشد الشاعر الأندلسي ابن حمديس يقول: الرمل

كُسِـــيَتْ قُمْـــصَ الأفـــاعي أُسُـــدٌ تُوِّجَـــتْ فيـــه بِبيضـــات الأدَاح (٢)

والزواحف عمومًا تميل إلى الحرارة ؛ أكثر مما تميل إلى البرودة، ولهذا نراها تنتشر في المناطق الاستوائية، وتقل تدريجيًا كلما اتجهنا إلى الشمال، أو الجنوب بعد خط الاستواء " وتتكاثر معظم الزواحف بالبيض؛ حيث تضع الأنثى عددًا من هذا البيض كما تفعل الطيور، ويتم تكوين الجنين خارج جسم الأنثى."(٣)

ويعتقد بعض الناس؛ أنه يمكن تغيير صروف الدهر، ولكن هذا لا يحدث كما أنه؛ لا يمكن أن تغير الأفاعي طباعها من اللدغ ، والعض، وفي هذه المعاني، أنشد الشاعر ابن حمديس قائلًا : الطويل

١- ديوان شعر، ابن اللبانة الداني ، تحقيق : محمد مجيد السعيد ، دار الراية للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، سنة النشر ٢٠٠٨م .صـ ٤٥

٢- ديوان شعر ابن حمديس الصقلى، أبو محمد عبد الجبار بن أبى بكر محمد ت [٥٢٧ه] صححه وقدم له : إحسان عباس. دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٦٠ م.صـ ٨٢

٣ - موسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي، عبد اللطيف عاشور صـ ٢٠٧

تُريـدُ مـنَ الأيّـام كَـفَّ صُـروفِها أَمُنتَقِـلٌ طَبْـعُ الأفـاعي عـنِ اللّسـبِ (١)

ويري بعض المهتمون بالحيات، والثعابين إن الحيات على ضخامتها؛ تفزغ من الناس، وتفر منهم، ولا تحاول إيذاءهم؛ إلا محرجة مضطرة ؛ للدفاع عن نفسها غير أن ذلك، لم يقلل من اعتقاد الناس بخطرها، وليس هذا عجيبًا منهم؛ فأنها كانت دائمًا موضع اهتمام عظيم، كثر ذكرها في الكتب السماوية، وفي الديانات على اختلافها، وفي الكتب الأدبية، والعلمية.

وقد وصف الشاعر الأندلسي ابن حمديس قومًا؛ تغلبوا علي أسد البيداء الضارية، وتغلبوا علي حيات الشعاب القاتلة- أيضًا- وهي من أشد الحيات، فتكا بالإنسان؛ ولذا تعجب الشاعر من هؤلاء البشر مستفهمًا؛ أهذه قلوبهم؛ التي لا تخشى الخوف؛ ولا تعرف الرعب، أم هذه صخور في صدورهم الصلبة، وفي هذه المعاني، أنشد الشاعر ابن حمديس قائلًا : الرمل

مـــن صـــناديدهمُ إنْ ســـاوروا أُسُـــدَ البيـــد وحيّـــاتِ الشـــعاب
لســـتُ أدري أقلـــوبٌ مـــنهمُ أمْ صـخورٌ فـي الحيـازيم صِـلاب (٢)

وقد وصف الشاعر ابن حمديس الحيات، بأنها حيات شعاب، وهذه الحيات تعيش في البيئات الصحراوية؛ حيث تكثر الشعاب، والشقوق، وتعد هذه الحيات من أقوي الحيات، وأكثرها فتكًا بالإنسان، والكائنات الحية الأخرى، وتحمل هذه الحيات بداخلها سموم قاتلة، ولها أنياب معقوفة، وتعد حيات الشعاب من الحيات المعمرة .

وقد وصف الشاعر ابن حمديس- أيضًا– الثعابين؛ التي تترك شعابها، بأنها ثعابين القفار، وقد وصف الشاعر ابن حمديس- أيضًا- الأسود، التي تركت غابتها، ومياها الجارية، وأسرعت تلك الثعابين، والأسود؛ لتهجم علي جيف الأعداء؛ التي خلفتها الحروب؛ حتى أن الشاعر ظن أن سلم الممدوح بالعجاج قتالاً ضاريًا من كثرة الجيف، وفي هذه المعاني، أنشد الشاعر ابن حمديس قائلًا: الكامل

١ - ديوان شعر ابن حمديس الصقلى صـ ٣٠
٢ - ديوان شعر ابن حمديس الصقلى صـ٨٥٦

تَرَكَــتْ ثَعــابينُ القفــارِ شِــعابَها وأُســـودُها الآجـــام والأغيـــالا
وأتــت معوّلــةً علــى جيــفِ العــدى وحســبنَ سِــلْمَكَ بالعجــاج قتــالا (١)

" وتمتاز الزواحف عن جميع الحيوانات الفقارية الأخرى، بأن أجسامها مغطاة من الخارج بقشور قرنية صلبة، تنتشر على جميع أجزاء جسمها؛ بما فى ذلك الأطراف والذنب." (٢)

ومن الثعابين: ما يطلق عليه ثعابين البحر، أو الثعابين المائية، وهذه الثعابين لها أنياب قوية، كأنها من حديد، تصيب من تنهشه بها بالموت، فيقام عليه الحداد، وهذه الثعابين، يختلط لونها الأسود، ببياض الحمام، ولونه الأبيض؛ وفي هذه المعاني، أنشد الشاعر ابن حمديس قائلًا : الكامل

ثُعبـــانُ بَحْـــرٍ عَضُّـــهُ بِنَواجـــذٍ خُلِعَــتْ عَلَيــهِ مِــنَ الحديــدِ جِــدادِ
يُبــدي غــرابٌ منــه ســقطَ حمامــةٍ بِبَياضِــهِ فــي البحــرِ جَــرْيُ ســوادِ (٣)

وتتبع الزواحف، والثعابين طريقة معينة في زحفها علي الأرض، ففى مثل " هذه الكائنات عديمة الأطراف، يكون ارتكاز الحيوان ببطنه على سطح الأرض ارتكازًا كاملًا، وهى تزحف على هذا السطح مستخدمة فى ذلك عضلاتها الجسمية القوية،التى تدفعها إلى الأمام فى حركات تموجية، أو أنها قد تحفر لنفسها أنفاقًا تحت سطح الأرض، تعيش بداخلها، وتعرف عندئذ، بالزواحف الحفارة ."(٤)

وتمتاز الثعابين بسرعة انسيابها في الحركة؛ لذا شبهها كثير من شعراء الأندلس؛ بأنها تنساب في حركتها، كانسياب الماء، وفي هذه المعاني، أنشد الشاعر ابن خفاجة الأندلسي (٤٥٠ هـ - ٥٣٣هـ) قائلًا : الكامل

جاذَبتُــهُ فَضــلَ العِنــانِ وَقَــد طَغَــى فَإِنصــاعَ يَنســابُ اِنسِــيابَ الأَرقَــمِ (٥)

١ - المصدر السابق صـ٣٤١
٢ - موسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي، عبد اللطيف عاشور صـ ٢٠٦
٣ - ديوان شعر ابن حمديس الصقلي صـ١٢٢
٤ - موسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي، عبد اللطيف عاشور صـ ٢٠٧
٥ - ديوان شعر ابن خفاجة الأندلسي صـ ٢٧٧

وقد حظيت الزوجة الأندلسية، بما حظيت به الحية الرقشاء عند عناقها - أي عند لدغها الإنسان- فقد وصف الشاعر الأندلسي ابن سارة الأندلسي (؟ ه - ٥١٧ه) ذلك؛ حينما رق له الزمان بطلة - أي بزوجة - كانت تقطر من دمه؛ الذي أساله سيف نفاقها، وكأن الشاعر يريد أن يقول- هنا - أنه علي الإنسان ألا يأمن غدر الزوجة، وإن رقت له، ولانت لزوجها.

فالزوجة : كالذئبة الماكرة، أو كالحية الرقشاء؛ حينما تصيب الإنسان بسمومها، وتهجم عليه، وتنهشه نهشًا، ويبدو للبعض أنها تعانقه، وفي هذه المعاني، أنشد الشاعر ابن سارة الأندلسي يقول : الكامل

أما الزمان فرق لي من طلة كانت تطل دمي بسيف نفاقها
الذئبة الطلساء عند نفاقها والحية الرقشاء عند عناقها (١)

والثعبان من الزواحف؛ التي ورد ذكرها في القرآن الكريم " وقد عرفنا من القرآن الكريم، كيف تحولت عصا موسى- عليه السلام- إلى حَيَّةٌ تَسْعى؛ وإلى ثُعْبانٌ مُبِينٌ يبتلع كل ما قدمه السحرة من فنون الإفك، والبهتان، وما ذلك إلا لأن الثعابين على اختلاف أنواعها؛ تعتبر من أقدر الحيوانات على بث الرعب، والفزع فى نفوس الناس أجمعين! " (٢)

وقد أشار الشاعر الأندلسي الأعمى التطيلي (٤٨٥ه – ٥٢٥ه) لقصة سيدنا الموسي مع فرعون، وكيف تحولت العصى إلي ثعبان، يسعي، ويبتلع ما قدمه السحرة من ثعابين مسحورة، وفي هذه المعاني، أنشد الشاعر الأعمي التطيلي يقول: البسيط

عصا جَذِيمةَ إلا ما أُتيح لها من أمرِ موسى فجاءَتْ وَهْيَ ثعبان (٣)

وفي هذه المعاني- أيضًا- أنشد الأعمى التطيلي يقول: الطويل

١ - الذخيرة في محاسن أهل اجزيرة، ابن بسام الشنتريني ق٢ جـ ٢ صـ ٨٤٤
٢ - موسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي، عبد اللطيف عاشور صـ ٢٠٤
٣ - قلائد العقيان، الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوج ، أبو محمد (المتوفى: ٢٤٧هـ) طبعة: مصر، عام النشر ١٢٨٤هـ - ١٨٦٦م .صـ ٢٧٦

ولـيس بموسـى غيـرَ أنّـي رأيْتُـهُ وكـلُّ قنـاةٍ دون عَليـاه ثُعْبـان (١)

وهناك بعض الثعابين، والحيات؛ التي اشتهرت علي مر السنين، وفي فترات زمانية مختلفة، ومن هذه الحيات:" حية آدم عليه السلام، وعصا موصى، وثعبان كليوبترا، وترى اسكليبوس إله الطب عند اليونان، يحمل عصًا ملتفة عليها أفعى، وابنته هيجيا إلهة الصحة، ترى دائمًا معها أفعى تقدم إليها الماء، وقد صنع عقدًا لألهة مينرفا من صور الأفاعي، وإن رأس ميدوزا إلهة الانتقام معصوب بها؛ وكان قدماء المصريين يعبدون الناشر المصري المعروف، وكان من الخرافات السائدة في الشعب في ذلك العهد، أن هذه الأفاعي الخطرة تختلط بالناس في بيوتهم، وتعيش بينهم على العسل، والنبيذ، ولا تمسهم بسوء ." (٢)

وقد وصف الشاعر الأندلسي الأعمى التطيلي الحية الصل؛ التي وصفها الشاعر بالدهاء؛ كلما اتجهت نحوها الرماح ، والقضب، وفي هذه المعاني، أنشد الأعمى التطيلي يقول: البسيط

والحيَّـةُ الصِـلُّ أدهـى كلمـا انبعثـت من أنْ تمارسـها الأرْمَـاح والقضـب (٣)

والحنش: حية عظيمة سوداء؛ ليست من ذوات السموم، وما أشبه رأسه رأس الحيات من الحرابى، وسوام، أبرص، ونحوها، وقد وصف الشاعر الأندلسي ابن الزقاق البلنسي (٤٩٠هـ - ٥٢٨هـ) الصدغ الذي ظهر في الرياض؛ وكأنه حنش، وقد توخى الشاعر الحذر قدر الإمكان من لدغ الثعبان الأرقش، وفي هذه المعاني، أنشد ابن الزقاق البلنسي قائلًا : الرمل

يـا ضـياءَ الصـبحِ تحـتَ الغَـبَشِ أطِـرازٌ فـوق خَـدَّيْكَ وشِـيْش
أم ريـاضٌ دَبَّجَتْهـا مُزْنَـةٌ وبـدا الصُّـدْغُ بهـا كـالحَنَشِ

١ - ديوان شعر الأعمى التطيلي، الأعمى التطيلي، تحقيق: محي الدين ديب، المؤسسة الحديثة للكتاب ، لبنان، الطبعة الأولي ٢٠١٤م صـ ٢٣٦
٢ -مجلة الرسالة ، أحمد حسن الزيات باشا (المتوفى: ١٣٨٨هـ) عدد الأعداد: ١٠٢٥ عددا جـ ٣٣ صـ ٦٢
٣ - ديوان شعر الأعمى التطيلي صـ ٥٠

لســـتُ أدري أســـهام اللحـــظِ مـــا أتَّقـــي أم لـــدغُ ذاكَ الأرقـــش (١)

ومـن أشـهر أنـواع الثعـابين الطويلـة: ثعبـان البـوا حيـث يبلـغ طولـه فـى المتوسط عشرين قدمًا، وإذا كانت الثعابين؛ ليست كلها سامة، فإن الحيات الموجودة فى مصر كلها سامة جدًا، والسؤال الذي يطرح نفسه، وبشدة، كيف يستطيع بعض الأشخاص من الناس- الذين يطلق عليهم حواة - أمساك الحيات، والثعابين السامة؟

" أمـا الطريقـة: التـي يسـتخدمها هـؤلاء النـاس فـي إمسـاك الحيـات؛ فأنهـا ترجع أولاً إلى الذعر الذي يعتري الحية؛ عندما يفاجئها مفاجئ غريب؛ فأنها تقف بغتة بتأثير الحركات العكسية فيها، ثم إلى خفة حركة الصياد في القبض على رقبة الحية، وفي تحريك عصاه، وإلى قوة تأثيره النفسي، وشعور الحية بهذه القوة؛ كقوة التنويم المغناطيسي، والدليل الآتي يؤيد صحة هذه النظرية، وذلك أنه قد تقدم أحد الأشخاص، وكان يخاف من الحيات، فامسك دساسًا، فعضه، ثم تقدم آخر،لا يخشاها، ولا يخاف منها، وأمسك الحية، فلم تحرك ساكنًا، وكلاهما لا يدين بمذهب الرفاعية .(٢)

ومن طرائف الشعراء؛ التي وقعت علي إثر ذكر الحيات، والثعابين؛ ما أنشده الشاعر أبو عباس الجراوي (٥٢٨هـ- ٦٠٩هـ) قائلًا : الطويل

إذا كـــان أمـــلاكُ الزمـــانِ أراقِمـــاً فإنـكَ فـيهم دائـم الـدهرِ ثُعبـانُ (٣)

وقد سمع أحد ظرفاء الأندلس هذا البيت؛ فقال: " لا ينكر هذا على مثل الجراوي؛ فسبحان من جعل نسبه، وروحه، وشعره ؛ تتناسب في الثقالة، وإن أردت الافتخار بالفرسان، والتفاضل بالشجعان؛ فمن كان قبلنا منهم في مدة المنصور بن أبي عامر، ومدة ملوك الطوائف أخبارهم مشهورة ، وآثارهم مذكورة ، وكفاك من

١- ديوان شعر ابن الزقاق البلنسي، ابن الزقاق البلنسى، على بن عطية الله بن مطرف بن سلمة (ت ٥٢٩هـ) حققته: عفيفة محمود ديرانى ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان صـ١٩٤

٢ - مجلة الرسالة ، أحمد حسن الزيات باشا ،عدد الأعداد: ١٠٢٥ عددا جـ ٣٣ صـ ٦٥

٣ - نفح الطيب من الأندلس الرطيب، المقرئ التلمساني ،جـ ٣ صـ٢١٠

أبطال عصرنا ما سمعت عن الأمير أبي عبد الله ابن مردنيش؛ وأنه كان يدفع في المواكب ، ويشقها يمينًا ويسارًا ." (١)

أما من جميل القول الشاعر أبو عباس الجراوي في ذكر الثعابين؛ ما أورده في إشارة لقصة سيدنا موسي مع فرعون؛ وعصاه التي تحولت إلي ثعبان كبير، وفي هذه المعاني ، أنشد الشاعر أبو العباس يقول: الطويل

ولما دهى من سحرِ فرعونَ ما دهى أتيحت عصا موسى له وهي ثعبانُ (٢)

وينظر بعض الناس؛ إلي بعض أفعال الحواة ، أنها نوع من السحر، ولكنها في الحقيقة؛ لا تمت لأعمال السحر بشئ من ذلك " وعلى ذلك لا يجوز أن تعزى قوة الحواة الى شيء من السحر، أو الولاية ، ولا أدل على ذلك من أن أهالي البرازيل، وعمال حديقة الحيات الشهيرة عندهم ؛ يمسكون بأنواع الحيات، ومنها ذات الجرس المخيف ، دون أن يمسهم سوء ، وهم ليسوا أتباعًا، ولا ينتسبون للرفاعي ." (٣)

ومن عجائب مدن الأندلس، مدينة سرقسطة ؛ التي تموت بها الحيات وقت دخولها إليه " هكذا رأيت في كلام بعض علماء المشارقة ؛ والذي رأيته ؛ لبعض مؤرخي المغرب في سرقسطة ؛ أنها لا تدخلها عقرب، ولا حية إلا ماتت من ساعتها ، ويؤتى بالحيات ، والعقارب إليها حية ؛ فبنفس ما تدخل إلى جوف البلد تموت ." (٤)

وما ذكر عن مدينة سرقسطة علي غرار بعض المناطق الأخرى : مثل الجزيرة ؛ التي طاف نهر، كما طاف عليها ثعبان الصل ، وألتف ، والشاعر- هنا – أرد أن يقول؛ أن النهر أحاط الجزيرة، كما يلتف الثعبان الصل علي شئ : مثل الغصن، أو الشجر ، أو حتي كما يلتف علي جسم إنسان، وقد أورد الشاعر الأندلسي مرج الكحل (٥٥٤هـ- ٦٣٤هـ) ذلك فيما أنشده يقول : الوافر

١ - فضائل الأندلس وأهلها ، ابن حزم ، وابن سعيد ، والشقندي ، الكتاب المحقق: صلاح الدين المنجد ، الناشر: دار الكتاب الجديد ، الطبعة الأولى ١٩٦٨م صـ ٤٨

٢ - ديوان شعر، أبو العباس الجراوي، الناشر : سلسة ذخائر التراث الأدبي المغربي ، الطبعة الأولي صـ ٤٦

٣ - مجلة الرسالة ، أحمد حسن الزيات باشا ،عدد الأعداد: ١٠٢٥ عددا جـ ٣٣ صـ٦٢

٤ - نفح الطيب من الأندلس الرطيب، المقرئ التلمساني جـ ١ صـ١٩٧

سَـــقى اللهُ الجَزيـــرةَ مِـــن مَحَـــلٍّ فَقَـــد حَسُـــنَت لِقاطِنِهـــا مَراحـــا
وَطـافَ بِهـا طَـوافَ الصـلّ نَهـر كَمـا أَبصَـرتَ فـي خَصـرٍ وِشـاحا (١)

وقد وصف الشاعر لسان الدين ابن الخطيب (٧١٣ هـ - ٧٧٦ هـ) ثعبان الماء، أو النهر؛ حينما روعهم بخروجه من جحره ، ينساب كالماء، أو كالريح التي هزت الأغصان من فوقه، ويزعم الشاعر أن الأطيار، قد صاحت خوف؛ من خروج هذا الثعبان من جحره ، وفي هذه المعاني، أنشد الشاعر الأندلسي لسان الدين ابن الخطيب يقول : السريع

ثُعْبـــانُ نهْـــرٍ راعَنـــا قَـــدُّهُ لمّـــا أتـــى ينْســـابُ مـــنْ جُحْـــرِهِ
فـــاهْتزّتِ الأغْصـــانُ مـــنْ فوقِـــهِ وصـــاحَتِ الأطْيـــارُ فـــي إثْـــرِهِ (٢)

وعن سم الأفاعي القاتل، أنشد الأندلسي لسان الدين ابن الخطيب يقول: الكامل

مِـنْ كُـلِّ مُنْسَـحِبِ السَّـوَابِغِ مُضْـمِرٍ سُـمَّ الأَفَـاعِي تَحْـتَ جِلْـدِ الأَرْقَـمِ (٣)

وتوصف الزواحف– أيضًا - بأنها من الحيوانات الفقارية، إذ يحتوى جسم كل منها على عمود فقارى؛ يشبه العمود الفقارى الموجود فى أجسامنا عند الظهر.

" وبينما يتركب العمود الفقرى فى الإنسان من ٢٦ فقرة ، إذ هو فى الزواحف ، يتوقف على طول الجسم فى الزواحف ، فقد يصل عدد الفقرات إلى ٤٠٠ فقرة فى بعض الثعابين الطويلة، تمتد متناسقة الواحدة منها خلف الأخرى فى نظام دقيق من خلف الرأس إلى نهاية الذنب." (٤)

١ - مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار، أبو عبد الله بن عسكر، أبي بكر بن خميس، تقديم وتخريج وتعليق: الدكتور عبد الله المرابط الترغي، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م صـ ١٦٦
٢ - ديوان شعر ابن الخطيب، لسان الدين ابن الخطيب ، تحقيق : محمد مفتاح ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولي ١٩٨٩م صـ ٤٣٨
٣ - ديوان شعر ابن الخطيب صـ٥٣٧
٤ - موسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي، عبد اللطيف عاشور صـ ٢٠٦

وقد لاحظ الباحث من خلال النصوص الشعرية؛ التي أوردها في هذه المبحث أن الشعراء الأندلسيين؛ قد وصفوا الثعابين، والحيات، وذكروا في أوصافهم مدى الفزع والرعب؛ الذي يسيطر علي الإنسان؛ حينما يواجه هذه الحيوانات، ويسرع للفرار منها بشتى الطرق .

-أهم النتائج :

- تصدى الشعراء الأندلسيون؛ لوصف سموم الحييات، والثعابين، وأفصحوا عن مدى خطورتها، وفتكها بمن تصيبه من البشر، أو حتي الكائنات الحية الأخرى.
- تناول الشعراء، وصف هذا الحيوان في فترات زمنية مختلفة، ومتعقبة؛ ويرجع السبب في ذلك؛ لوجود هذا الحيوان في البيئة الأندلسية من ناحية ، ومن ناحية أخري؛ وجد بعض الشعراء في صفات هذا الحيوان، وأوصافه أمثلة تضرب، وتشبيهات، تعبر عن مكنونات أنفسهم .
- وجد بعض الشعراء الأندلسيين في هذا الحيوان رمزًا ؛ عبر عن كثير من طباع الغدر، وعدم الأمان، بل وجدوا فيه كثير من الطباع؛ التي تمثل فئة كبيرة من المجتمع الأندلسي؛ الذي كثرة فيه الفتن؛ وبرز فيه النفاق؛ وكأنه حية رقشاء ؛ تحمل بداخلها كثير من السموم ؛ التي تؤدي بحياة من تصيبه .
- وصف بعض الشعراء الثعابين؛ والحيات ؛ في أشارة سريعة لقصة سيدنا موسي مع فرعون، وكيف تحولت العصى إلي حية ؛ تسعي، وكذلك تحولت إلي ثعبان كبير؛ وقضت علي سحر سحرة فرعون .

وأيًا كانت الأسباب، والدوافع: التي حدت بالشعراء الأندلسيين؛ لوصف هذا الحيوان ؛ فأنهم وصفوه بهيئته ؛ وبجميع أنواعه، وفئاته؛ وأبرزوا أضراره، وأخطاره، وكذلك أشاروا في أوصافهم لمنافعه، وفؤاده .

المصادر:

- التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، ابن الكتاني الطيب ، أبو عبد الله محمد بن الحسن (المتوفى: نحو ٤٢٠هـ) المحقق: إحسان عباس ، الناشر: دار الشروق، عنوان الناشر: بيروت – القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٨١ م.

- الحلة السيراء ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (المتوفى: ٦٥٨هـ) المحقق: الدكتور حسين مؤنس ، الناشر: دار المعارف – القاهرة ، الطبعة: الثانية، ١٩٨٥م .

- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ابن بسام ، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (المتوفى: ٥٤٢هـ) المحقق: إحسان عباس، الناشر: الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، الطبعة الأولي ١٩٧٨م.

- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري (المتوفى: ٦٥٤هـ) تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف ، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي .

- ديوان شعر ابن الحداد الأندلسي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف (ت٤٨٠ه) حققه: يوسف على طويل ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى١٩٩٠م.

- ديوان شعر ابن الخطيب، لسان الدين ابن الخطيب ، تحقيق : محمد مفتاح ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولي ١٩٨٩م.

- ديوان شعر ابن الرمادي ، يوسف بن هارون الرمادي ، جمعه وقدم لع : ماهر زهير جرار، بيروت، المؤسسة العربية الدراسات والنشر، الطبعة الأولي سنة ١٩٨٠م

- ديوان شعر ابن الزقاق البلنسي، ابن الزقاق البلنسى، على بن عطية الله بن مطرف بن سلمة (ت ٥٢٩ه) حققته: عفيفة محمود ديرانى ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان.

- ديوان شعر ابن حمديس الصقلى، أبو محمد ع٠بد الجبار بن أبى بكر محمد ت [٥٢٧ه] صححه وقدم له : إحسان عباس. دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٦٠ م.

- ديوان شعر ابن خفاجة الأندلسي ، ابن خفاجة الأندلسي ، تحقيق : عبد الله سنده، دار المعرفة ، بيروت، لبنان ، الطبعة الأولي سنة ٢٠٠٦م .
- ديوان شعر ابن دراج الأندلسي ، ابن دراج الأندلسي ، تحقيق : محمود علي مكي، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق الطبعة الأولي ١٩٦١م.
- ديوان شعر ابن عبد ربه : شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى (ت ٣٢٨ه) ، جمعه وحققه وشرحه: محمد رضوان الداية ، دار الفكر ، سورية ، الطبعة الثانية ١٩٨٧ م.
- ديوان شعر ابن هانئ ، أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدي الأندلسي ، بيروت ، دار بيروت للطباعة والنشر ، طبعة ١٩٨٠م.
- ديوان شعر أبي العباس الجراوي ، أبو العباس الجراوي ، الناشر : سلسة ذخائر التراث الأدبي المغربي ، الطبعة الأولي .
- ديوان شعر الأعمى التطيلي، الأعمى التطيلي، تحقيق : محي الدين ديب ، المؤسسة الحديثة للكتاب ، لبنان، الطبعة الأولي ٢٠١٤م
- ديوان شعر، ابن اللبانة الداني ، تحقيق : محمد مجيد السعيد ، دار الراية للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، سنة النشر ٢٠٠٨م .
- رسائل ابن حزم الأندلسي ، ابن حزم الأندلسي ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ) المحقق: إحسان عباس، الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت - لبنان . الطبعة الأولي ١٩٨٣م.
- فضائل الأندلس وأهلها ، ابن حزم ، وابن سعيد ، والشقندي، المحقق: صلاح الدين المنجد ، الناشر: دار الكتاب الجديد ، الطبعة الأولى ١٩٦٨م.
- قلائد العقيان، الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوج ، أبو محمد (المتوفى: ٢٤٧هـ) ، طبعة: مصر، عام النشر ١٢٨٤هـ - ١٨٦٦م .
- مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار، أبو عبد الله بن عسكر، أبي بكر بن خميس، تقديم وتخريج وتعليق: الدكتور عبد الله المرابط الترغي، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان ، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، المقري التلمساني، شهاب الدين أحمد بن محمد (المتوفى: ١٠٤١هـ) المحقق: إحسان عباس ، الناشر: دار صادر- بيروت - لبنان ، الطبعة ١٩٩٧م.

المراجع :

- موسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي ، عبد اللطيف عاشور، القاهرة ، مكتبة القرآن ، طبعة ٢٠٠٠م .

المجلات :

- مجلة الرسالة ، أحمد حسن الزيات باشا (المتوفى: ١٣٨٨هـ) عدد الأعداد: ١٠٢٥ عددا.
- مجلة اليوم السابع: دراسة تثبت " أن الثعابين يمكن أن تسمع أكثر مما نعتقد " كلية العلوم البيولوجية بجامعة كوينزلاند ، د. زدينك نشرت في ٢٠٢٣/٢/١٧م .